مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 26 عدد: 4 (رت 66) السنة: 2022

الاغتراب والاحتراب

ثنائية الهدم والبناء في ديوان "ظل المطر" لمحمد جربوعة

Alienation and strife
the duality of demolition and construction
in the poetry of Mohamed Jerboa "The Shadow of Rain"

د. عزالدين جلاوجي[1]
جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج
azzedine.djellaoudji@univ-bba.dz

تاريخ الوصول 2021/02/01 القبول 2021/11/13 النشر على الخط 2022/05/10
Received 01/02/2021 Accepted 13/11/2021 Published online 10/05/2022

ملخص:

يعرض المقال في جانبه النظري لمفهوم "الاغتراب" لغة واصطلاحا، ثم لعلاقة الاغتراب بالإنسان، والدين، والفلسفة، وفي الثقافة العربية، وفي الجانب التطبيقي يتتبع حضور الاغتراب في ديوان "ظل المطر"، مركزا على تجلي ذلك في العتبة، ثم المعجم، ثم التخييل، ثم متن الديوان، ثم يتتبع حضور "الاحتراب" في ذات الديوان، مركزا على الاحتراب من خلال المعجم والتخييل، والمتن الديوان، وبذلك يكون المقال قد عرض لموضوع قلما تناوله النقد في الأدب الجزائري، خاصة وقد اشتغل على شاعر من هذا الجيل، وعلى ديوان صدر حديثا "2020".

وقد وصل البحث إلى جملة من النتائج أهمها: إحساس الشاعر الشديد بالاغتراب كما كبار الشعراء الذين حملوا هم أمتهم ومجتمعاتهم، وقد تجلى ذلك من خلال ما وظفه الشاعر على مستوى العتبة والمعجم والصور، غير أن هذا الإحساس بالاغتراب لم يدفع بالشاعر نحو ملاذات واهية، بقدر ما جعله يقف في مواجهة العاصفة مقاوما بما اصطلحنا عليه بـ "الاحتراب"، وهو ما تأكد من خلال ما اعتمده الشاعر من معجم وصور.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، الاحتراب، الغربة، الهدم، البناء

Abstract:

The article presents, in its theoretical side, the concept of alienation in language and idiom, it also shows the relationship of alienation to man, religion, and philosophy, and in Arab culture. On the practical side, however; it traces the presence of alienation in the poetry "Shadow of Rain" by Muhammad Jarboa focusing on the threshold,the lexicon, imagining, and then in the poems. After that, it tracks the presence of the conflict in the same divan focusing on warfare through the lexicon, imagination, and the poems. This article, therfore, reveals a topic that has rarely been criticized in the Algerian literature especially it works on a poet of this genetation and on a recently published poem in 2020.

The research has reached a set of important results: the poet's intense sense of alienation, as the great poets who bear their nation and societies worry. This was evidenced by what the poet employed at the level of the threshold, the lexicon, and the pictures. This sense of alienation did not drive the poet to weak havens. By contrast, it made him stand in the face of the storm resisting what we termed "strife," and that was confirmed through dictionary and pictures.

Key words: alienation, strife, alienation, demolition, construction.

[1] المؤلف المرسل: **عزالدين جلاوجي** البريد الالكتروني: **azzedine.djellaoudji@univ-bba.dz**

مقدمة:

قد يكون مصطلح الاغتراب من أكثر المصطلحات شيوعا وتداولا في العصر الحديث، وقد تجلى ذلك في كثير من الفلسفات والفنون، وعلى رأسها الأدب ومنه الشعر بخاصة، وإن كان للاغتراب وجود عند الأقدمين فإنه ترسخ بشكل أكثر في عصرنا هذا، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وإحساسِ الإنسان بلا جدوى كل ما تشبث به من أفكار وقيم سماوية أو أرضية حلم دوما أنها خلاصه، ولم يختلف الأمر عند الأدباء العرب وهم يرون كثيرا من حصونهم التي بنوها بعد انجلاء المحتلين تنهار في كثير من المحطات، وأهمها الدكتاتوريات الحاكمة، واحتلال شرذمة الصهاينة لفلسطين، ثم نكسة 67، ثم صقيع الربيع العربي الذي خلخل أركان المجتمعات العربية وأنظمتها.

يتتبع المقال "الاغتراب" في مفاهيمه اللغوية والاصطلاحية، ثم يتتبع حضوره في الثقافة العربية مند القرون الأولى إلى عصرنا هذا، وعند الفلاسفة الغربيين أيضا، ليتوقف عند تجربة شعرية جزائرية كبيرة هي تجربة الشاعر "محمد جربوعة"• من خلال ديوانه "ظل المطر"، متتبعا تجلي الاغتراب في مفاصلها، وتجلى ما تولد لدى الشاعر من ردود أفعال.

1-الاغتراب لغة واصطلاحا:

ورد في لسان العرب في مادة غرب، والغَرْب: الذَّهاب والتنَحي عن النَّاس، وقد غَرُب يغْرُب غَربا وغَرَّب وغَرّب وأَغْرَبه: نحاه، والتَغَرّب: البعد، الغُربة والغَرب: النزوح عن الوطن والاغتراب، والاغتراب: افتعال من الغُربة، وأغْرب الرجل: صار غَرِيبا[1]، وفي المعجم الوسيط: غَرُب عن وطنه، غَرابَة وغُرْبة: ابتعد عنه، واغْتَرب وتَغَرَّب: نزح عن الوطن[2]، ولم يخرج المعنى في القاموسين معا عن البعد والنزوح والذهاب والتنحي.

أما اصطلاحا فيمكن أن نطمئن إلى تعريف الدكتور نبيل راغب حين عرفه بقوله: "الاغتراب هو حالة نفسية تلازم الإنسان وتشعره بالألم والحزن سواء كان هذا الإنسان في وطنه، أم كان بعيدا"[3]، مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى "انسلاخ عن المجتمع (...) وإخفاق في التكيّف مع الأوضاع السائدة فيه"[4]، وبالتالي يكون الاغتراب ارتفاع بالنفس من حالات السقوط والتردي، عاكسا لتمزق "الذات" وانفصالها عن الجماعة، وهنا تبرز مشكلة البطل الفرد المنعزل عن الكل، لشعوره بالظلم منهم، لما يمارسونه ضده من تقييد لحركته وعرقلة لانطلاقته وشل لعبقريته، فتعاني نفسه المظلومة وتنعزل بمنأى عن الجميع، وتحيى بنفس مضطربة لا تشعر بالرضا والاطمئنان.

ومما تقدم في التعريف يمكن الفصل بين مفهومي الغربة والاغتراب، إن الأول هو غربة مادية للجسد عن محيطه الجغرافي المادي،

• **أصدر محمد جربوعة الدواوين التالية**: رماد القوافي، أه، جالسا على حقائب السفر، معلقات صفراء، الشاعر، مطر يتأمل القطة من نافذته، ممن وقع هذا الزر الأحمر؟، وعيناها، قدر حبه، ثم سكت، اللوح، بأي ربطة عنق ستذهب؟ ألف ليلى وليلى، سعيدة، ذلك الشيخ أترينه؟، ظل المطر.

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 3، 1994، مج3، ص: 639.

[2]- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ج 2، دار الفكر، لبنان، ط 2، ص 647.

[3]- نبيل راغب، موسوعة الفكر، دار غريب، القاهرة، مصر، 2002، ص 59.

[4]- عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب، القاهرة، مصر، 2002، ص 21.

أما الثاني فهو غربة معنوية، أي غربة للروح والنفس والفكر عما يحيط بها من قناعات ويقينيات وممارسات، وإذا كان لذلك علاقة بالإنسان عموما، فإنه قد تجلى مرتبطا بالدين والفسلفة خاصة .

2-الاغتراب والإنسان:

لقد عاش الإنسان الاغتراب منذ وجد على هذه الأرض، بما يثيره في نفسه من أسئلة حارقة في علاقته مع كل يوجد حوله من مظاهر طبيعية ومن كائنات يتفاعل معها سلبا وإيجابا، وفي علاقته مع ظواهر الطبيعة الكبرى التي ظلت تهدد وجوده، بل وفي علاقته بالموت الذي ظل يمثل له لغزا محيرا، إن تطلع الإنسان إلى المعرفة وسعيه نحو هتك حجب الأسرار يجعله يحس عميقا بالاغتراب، خاصة وأنه محاط بالخيبة المستمرة المتأتية من كونه كلما ازداد معرفة ازداد جهلا، وكلما اكتشف حقيقة امتدت أمامه مجاهيل لا حد لها ولا حصر، ولاشك أن ذلك يزداد اتساعا وعمقا كلما تقدم الإنسان في مدارج الحضارة، خاصة في هذا العصر وقد فقد كل اليقينيات، مما جعله يعيش اغترابا عن الحياة ذاتها، وعن واقعه ومجتمعه وحتى عن نفسه، وعن أمواج متلاطمة من الأفكار والفلسفات واليقينيات، وهو ما أدى إلى تفشى الاضطرابات النفسية والانتحارات والحروب بكل أشكالها، وإذا كان الإنسان العادي يبدو منسجما مع واقعه، فإن المثقف أكثر إحساسا واكتواء بالغربة النفسية، مما يجعله فريسة الاضطرابات، وعدم الانسجام مع الناس والقيم والأفكار حوله، ومما يجعلنا نجزم أن الاغتراب ظاهرة إنسانية بامتياز، وقد تجلى ذلك في كل مناحي المعرف والفن لدى الإنسان.

3-الاغتراب والدين:

لم ترد لفظة الاغتراب والغربة في القرآن الكريم، وانحصر معنى غَرُبَ في الاتجاه الذي يقابل شَرُقَ، ومن الصيغ الواردة في القرآن الكريم "مَغْرب، غَرُبت، تَغْرب، غَرْبية، غَربي"، رغم أن الغربة والاغتراب مما حدث كثيرا لمن قص القرآن أنباءهم، وأخص بالذكر الصالحين والأنبياء رفضا لفساد أقوامهم وانحرافهم، ولعل أول من تغرب مضطرا هو آدم وحواء حين أخرجا من الجنة "قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ" (سورة الأعراف، الآية 24)، وهي غربة نفسية أكبر منها غربة مادية، إنه انتقال من قيم وضوابط لقيم وضوابط أخرى، أكثر منه انتقال من مكان "الجنة" إلى مكان آخر "الأرض"، في حين عاش نوح عليه السلام اغترابا بين قومه حين دعاهم لسنوات طويلة وبكل الطرق والسبل لكن دون جدوى، "وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا" (سورة نوح، الآية7)، إنها غربة روحية نفسية عقدية، لم تدفعه إلى الهروب أو الانطواء، بل خاض معهم مواجهة طويلة وعنيدة من أجل تغيير قيم الكفر التي كانوا يتشبثون بها بقيم الإيمان التي كان يدعوهم إليها، مما جعل نوحا عليه السلام يفقد الثقة في صلاحهم ويدعو عليهم بالهلاك "وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)" (سورة نوح، الآية 26- 28)، وحين نتتبع قصص الأنبياء والصالحين في القرآن الكريم فإننا لا نكاد نستثني واحدا منهم، فهم جميعا قد عاشوا الاغتراب بين أقوامهم على درجات متفاوتة في مستواه، وعلى درجات مختلفة في التعامل معه

وقد جمع أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام بين الغربة والاغتراب، والأمر ذاته عاشه النبي محمد صلى الله عليه وسلم، حيث جمع

بين الغربة وهو يهاجر إلى المدينة المنورة جسدا، والاغتراب مذ بعث في قومه إلى أن توفاه الله، ويمكن أن نستدل على ذلك بدعائه في الطائف وهو يتعرض للأذى، ويحس بالاغتراب "اللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس" (رواه الطبراني)، كما نستدل على اغترابه بين قومه وهم يحاصرونه بالسخرية والاستهزاء حتى يضيق صدره، "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ الساجدين واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين" (سورة الحجر، الآية 97)، ويشير الحديث "جاء الإسلام غريبا، وسيعود غريبا" (رواه مسلم)، إلى ما عاناه أتباعه من اغتراب وما سيعانونه في مستقبل العصور سواء أكانوا قلة أم كثرة.

4-الاغتراب والفلسفة:

إن لم يتغرب الفلاسفة فمن يتغرب؟ وهم الذين ظلوا يمدون حبال الأسئلة إلى البشرية كي ترتقي في سلم الشك الذي لا سبيل دونه إلى اليقين كما أشار إلى ذلك أبو حامد الغزالي، ثم ديكارت بعده، إن الأسئلة دليل الشك، وإن الشك دليل الحيرة، وذلك دليل الاغتراب عن المسلمات واليقينيات وبالتالي الاغتراب عن الناس.

ولنا مسيرة طويلة حافلة بالاغتراب مع الفلاسفة، ابتداء من فلاسفة اليونان قبل الميلاد، لقد قضى سقراط Socrates (470 ق م- 399 ق م) كل حياته لينهض بمجتمعه عن طريق طرح الأسئلة الاستفزازية من أجل الارتقاء بعقولهم حتى قضى قتيلا على أيدي الغوغاء التي جرعته السم، إلى الفلاسفة العرب كابن رشد، وما عانى من حصار وإقصاء وسخرية وحرق لكتبه، إلى فلاسفة العصر الحديث، ويمكن أن نمثل لذلك بهيدجر Martin Heidegger (1889-1976) الذي لم يعش الاغتراب كفكر وكسلوك فقط، بل كان يدعو إلى وجوب الالتزام به لأنه يراه هو الوجود الحقيقي والأصيل، إذ الآخر عنده هو الدونية والزوال والنهاية يقول: "الوجود بين الغير ومعه هو وجود زائف ومشوه، أما الوجود الأصيل فهو الوجود الذي لا تقرره علاقات المرء بالآخرين، وإنما يحدده المرء بخياراته"[1]. ومعنى ذلك أن الاغتراب عن المجتمع ضروري لأنه اغتراب عن وجود "زائف ومشوه"، من أجل تحقيق الوجود "الأصيل".

5-الاغتراب في الثقافة العربية:

ارتبطت فكرة الاغتراب بالمبدع العربي الأول، وإن كانت النصوص الموغلة في القدم لم تصلنا فإننا يمكن أن نستشهد بنص الشنفرى (؟-ت 525م) مثلا، وهو من شعراء ما قبل الإسلام في لاميته المشهورة التي نستطيع أن نقول إنها خير ما عبر عن الاغتراب الذي كان يعيشه الشاعر بين قومه، لدرجة أن دفعه ذلك إلى هجرهم وتفضيل الطبيعة وما فيها من قساوة عليهم، ويكفي أن نستدل بقوله:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم :: فإني إلى قوم سواكم لأميل[2]

---

[1]- نزهة صادق، مختصر فلسفة الوجود عند مارتن هيدجر، موقع أزاميل، https://azamil.com/?p=30973 نشر بتاريخ 2020-11-03، اطلع عليه بتاريخ 09-01- 2021.

[2]- الشنفرى، ديوان الشنفرى، ط 2، جمع وتحقيق إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1996، ص 58.

إلى نص المقنع الكندي:

يعاتبني في الدِّين قومي وإنّما :: ديوني في أشياء تكسبهم حمدا[1]

إلى رحلة البحتري فارا مما ألم به من هموم، إلى حيث يلتمس الراحة.

حضرت رحلي الهموم فوجهت :: إلى أبيض المدائـــن عنسي

أَتَسَلّى عَنِ الحُظـــوظِ وَآسى :: لِمَحَلٍّ مِن آلِ ساسانَ دَرسِ

أَذكَرتِنيهُمُ الخُطـــوبُ التَوالي :: وَلَقَد تُذكِرُ الخُطـوبُ وَتُنسي[2]

ولعل أكثر شعراء العربية إحساسا بالاغتراب هو المتنبي، ولعل مرد ذلك ما كان يحسه في نفسه من نرجسية، جعلته يرفض الجميع ويتعالى على الجميع، ولنسمعه يصيح في مسمع الكون يحدثه عن نفسه:

تغَّربَ لا مستعظما غير نفسه :: ولا قابلا إلا لخالقه حكما[3]

وهو ما يؤكده في بيت آخر مشبها نفسه بالمسيح عليه السلام، وهو لا يشبهه في شيء غير الإحساس بالاغتراب.

ما مقامي بأرض نخلة :: إلا كمقام المسيح بين اليهود[4]

وقد عاش الفلاسفة والعلماء العرب هذه الحالة النفسية، ويمكن أن نمثل لذلك بأبي حيان التوحيدي الذي يقول: "فأين أنت من غريب قد طالت غربته في وطنه، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟ وأين أنت من غريب لا سبيل له إلى الأوطان، بل الغريب من ليس له نسيب، الغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة إن حضر كان غائبًا، وأن غاب كان حاضرًا"[5] وقوله: "وأغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيدا في محل قربه"[6]، والأمر ذاته نجده في كتابات ابن باجة أيضا، وغيرهما مما يدل على أن الاغتراب كحقيقة وكمفهوم قد وجد طريقه إلى التآليف في المكتبة العربية القديمة.

وقد تعمق الشعور بالاغتراب في الثقافة العربية اليوم، بداية بسبب هذا التيار الجارف من الاغتراب في المدنية الحديثة، وفيما أنتجت من فلسفات تطفح بالشك في كل شيء، إضافة إلى ما يعانيه الإنسان العربي ذاته من إحباطات نتيجة ما يحيط به من تخلف وفقر وجهل، ونتيجة الجراح العميقة التي تركها الاحتلال البغيض، ونتيجة الأنظمة الدكتاتورية التي جثمت على صدر الأمة العربية عقودا طويلة بدعم من الغرب ذاته، وعاثت فسادا في كل شيء، وجففت منابع الحرية والإبداع.

لقد وجد المبدع العربي وهو يخطو في هذه الأرض الشائكة الملغمة نفسه يعيش اغترابا شنيعا، اغترابا بكل أبعاده الاجتماعية

---

[1]- المقنع الكندي، شعر المقنع الكندي، جمع وتحقيق ودراسة أحمد سامي منصور، الكويت: حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 32 (الرسالة 341)، 2011 م.

[2]- البحتري، ديوان البحتري، تحقيق وشرح وتعليق حسن كامل الصيرفي، مج 1، ط 3، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص 1154.

[3]- المتنبي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، شرح ناصف اليازجي، مج 1، بيروت للطباعة والنشر، 1981، ص 346.

[4]- م، ن، ص 114.

[5]- أبو حيان التوحيدي ،الإشارات الإلهية، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، مصر، 1950، ص 79.

[6]- م، ن، ص ص80 .81.

والسياسية والثقافية، اغترابا في المكان والزمان والإنسان، وقد عبر عن ذلك بممارساته عبر المعارضة التي تودي به غالبا إلى القتل أو السجن أو النفي القسري أو الاختياري، ومثل ذلك ما وقع لعبد الرحمن منيف ومفدي زكريا وفرج فودة وسيد قطب، ونصر حامد أبوزيد، وغيرهم كثر، أو إلى الانتحار مثل ما حدث خليل الحاوي، وعبد الباسط الصوفي، وعبد الله بوخالفة، وغيرهم، غير أن الغالبية الساحقة من المثقفين اختاروا جبهات الرفض لكل الظلمات حولهم، والنضال ضد الفساد والانحراف في مجتمعاتهم وضد الأنظمة الحاكمة، وقد مارسوا ذلك فعليا في الميدان، أو من خلال الكتابة نثرا وشعرا.

ويعد الشعراء الرومانسيون في الأدب العربي أكثر هؤلاء إحساسا بالاغتراب وعلى رأس هؤلاء جبران خليل جبران اللبناني، وأبو القاسم الشابي التونسي، ومبارك جلواح الجزائري، وغيرهم.

6-الاغتراب والاحتراب (ثنائية الهدم والبناء) في ديوان ظل المطر للشاعر محمد جربوعة

مما يلفت الانتباه في شعر محمد جربوعة هو الإحساس بالاغتراب، وهي صفة تلازم بالضرورة كبار المثقفين والشعراء، لأنهم يرفضون أن يكونوا مجرد رقم في واجهة كبيرة، أو مجرد طائر في سرب عملاق، وإحساسهم ذاك هو ما يخلق لديهم التميز في كتاباتهم، وهو ما يدفعهم لأن يكونوا ثورة على كل ما يحيط بهم من زيف، سعيا منهم لهدم ما يرونه سيئا، واستبداله بواقع أجمل، فكيف تجلى الاغتراب في ديوان "ظل المطر"؟ وكيف كان تفاعل الشاعر معه سلبا وإيجابا؟

أ/ الاغتراب في ظل المطر

يتوقف المقال عند جملة من المحطات لإظهار حضور الاغتراب في شعر محمد جربوعة من خلال ديوانه "ظل المطر"، وأهم هذه المحطات: عتبة الاغتراب، معجم الاغتراب، تخييل الاغتراب، تجليات الاغتراب.

1)العتبة اغتراب

"ظل المطر" عتبة مخاتلة مخادعة، مشحونة بالدلالات، مفتوحة على القراءات، مما يجعلها تحقق أهم وظائف العنونة كما حددها النقاد، وعلى رأسهم جيرار جينات (G.Genette) خاصة وظيفة الإيحاء، والإثارة، والإغراء، وقد منح الرفع للفظة "ظلُّ" السيادة، كونه عمدة في جملة اسمية، وبالتالي فهو الأصل الذي يجب أن ينصرف إليه الاهتمام، ولم تأت لفظة "المطر" إلا مضافة مجرورة، وإذا كان الظل كما تذهب القواميس هو عتَمَةٌ تَغْشَى مكانًا حَجَبَ عنه أَشِعَّةً ضوئيّةً حاجزٌ غيرُ شفَّاف، فإن المطر لا ظل له لأنه لا يمكن حدوثه تحت أشعة الشمس، فإن حدث تحت أشعة الضوء كان باهتا مضطربا لا يمكن تبينه لعدم ثباته، وهنا يقع الذهن في تشويش، أينصرف إلى الظل الذي تلك حاله، أم ينصرف إلى المطر الذي لم يأت إلا مضافا مجرورا؟ مما يوحي بالاضطراب والاغتراب.

ولو تتبعنا بقية عناوين القصائد على اعتبار العنوان "بنية مستقلة تشتغل دلاليا في فضاء خاص بها"[1]، فإنا واجدون ما يوحي بذات المعنى، فـ "الكتابة على كف امرأة" لا تختلف عن ظل المطر اضطرابا وزوالا، والأمر ذاته ينصرف إلى "حدائق السراب"، و"أطلال على الوقوف"، و"هذيان بدوي على طريق الربع الخالي"، و"فناجين الموت" و"طاعون 2020"، و"حكاية منسية لعالف

[1] – محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص8.

خيل الفاتحين"، و"رسالة مشطوبة لا تصل"، و"عواصم شاعر استقال في الأربعين عن الحب"، وغيرها من العناوين التي توحي بشكل أو آخر بالاغتراب الذي نتهجى أبجديته أيضا داخل تضاريس الديوان.

2) معجم اغتراب

أحصيت في المقاطع التي تحيل على الاغتراب أكثر من ستين لفظة يمكن أن تمثل معجم الاغتراب، وهي بدورها يمكن تقسيمها إلى جملة من الحقول، منها بالأساس وقع الاغتراب على الشاعر في شقين، وقع مادي وآخر معنوي، ولكن قبل ذلك يجب أن نشير إلى أن الشاعر قد صرح بلفظ الاغتراب أربع مرات "غرباء، اغتراب، الغرباء، الغرباء".

تكشف ألفاظ الحقل الأول شدة وقع الاغتراب على الشاعر، وهو وقع مادي يجسد الشاعر ككائن بشري من لحم ودم، ومنها: "تسلخت، كسرت، يأكلنا، هوت، شهداء، أموت، أجوع، جرح، الكفن، خرائب، تسلب، يقتل، يكسر"، والملاحظ أنها تغطي مساحة واسعة من الألم تبدأ بالأمور البسيطة كالجوع والبكاء ثم الجرح، والكسر، إلى غاية السجن فالصلب فالموت، والقتل، والشهادة، والكفن، ولنسمعه يقول:

ستبكي قليلا، وتمسحُ منهمْ :: عناوينَهمْ، ثمّ تقطع حبـــلا[1]

في حين يكشف الحقل الثاني عن شدة وقع الاغتراب من الناحية المعنوية النفسية، ومدى تأثيره العميق على روح الشاعر، وهو يحس بكره الآخرين له وحقدهم عليه إلى درجة الغل الغليل "يكرهونك، بحقد، غليل"، مما يجعله يعيش حالة من الخوف والتيه "خوفنا، التيه، حزن"، ويصير كل ما حوله مجرد سراب وأطلال "سراب، وطلول باردة الحجارة":

"هذي العواصمُ كالأحجار باردةٌ"[2]

ليس إلا أحزان وجراح:

"وصار لنا بعده ألفُ جرحٍ وجرح

وحزنٌ على عدد الأمكنهْ[3]

3)تخييل الاغتراب:

إنما الشعر تخييل، بل ما الإبداع في عمومه إلا تخييل، يغمس الأديب ريشته في محابر اللغة ليطرز بها لوحات فنية مدهشة عجيبة الألوان، عبقرية الخطوط والظلال، أنيقة التنسيق، وقد أدرك أسلافنا ذلك حتى قال الجاحظ "إنما الشعر صناعة، وضرب من الصبغ وجنس من التصوير"[4]، وقال الجرجاني: "ومَعلوم أنَّ سبيل الكلام سبيل التصوير والصِّياغة"[5]، وهو يقصد الشعرَ بلفظة "الكلام"، وإذا كانت الصورة تنطلق من واقع المبدع وبيئته وخلفياته المعرفية والفنية التي شكلته، فإنها أيضا تنتمي في جوهرها إلى عالم الفكرة

---

[1]- محمد جربوعة، ظل المطر، دار المنتهى، الجزائر، 2020، ص6.

[2]- م، ن، ص 170.

[3]- م، ن، ص 35.

[4]- الجاحظ، الحيوان، دار إحياء العلوم، القاهرة، مصر، ط 1955، ص.557.

[5]- ينظر: محمود درابسة، مفاهيم في الشعرية، ط 1، دار جرير، الأردن، 2010، ص ص 28. 32.

كما يذهب إلى ذلك عزالدين إسماعيل[1]، لقد حظيت الصورة قديما وحديثا وفي كل الحضارات باهتمام كبير، واعتبرت مهما اختُلف في مفاهيمها ضيقا واتساعا جوهرَ الشعر، ولذلك سـ: "تظلُّ هي عنصر العناصر في الشعر، والمحكّ الأوّل الذي تُعرف به جودة الشاعر، وعمقه، وأصالته"[2].

ولسنا هنا بصدد تتبع ذلك في شعر محمد جربوعة كله، إنما سنحصر الأمر في المقاطع التي درسناها، لنربط ذلك بالاغتراب.

يسوق الشاعر حشدا من التشبيهات يبثها خلال مقاطع تطفح بالتغريب، ومنها تشبيهه للعواصم بالحجارة الباردة "هذي العواصمُ كالأحجار باردةٌ" (ص 170)، مما يجعلنا نحس بمواتها، وكأن الشاعر ينتظر أن تفتح له قلبها النابض بالحياة والحب، ليندفع مغردا، فإذا به ينكفئ على أحزانه ليوغل في الاغتراب عن عواصم/ حجارة باردة لا تصلح للاحتضان ولا حتى لأن تكون وسادة تكفكف الدموع، وتوغل ذِي المدن في تطويق بنيها لتمد لزنودهم أساور، ليس للزينة والاحتفاء، ولكنها لتكون قيودا لمن يرضى العبودية "قيودها أسْوِراتٌ للعبيد" (ص 95)، وإذ يتمنع الشاعر عن القيود معتصما بحريته وكبريائه، تعجل إليه المدن الموبوءة لتعلي حول فمه الأسوار المنيعة "لي ما يصدّ عن الهوى، وموانعٌ :: كالسُّور حولَ فمي" (ص 66)، لتمنع تغريده وغناءه، فتنقلب الموازين في هذه المدينة المسخوطة الممسوخة، فإذا "ظلامها شمسها، والشوكُ تفاحُ" (ص 95).

كما يسوق الشاعر حشدا من الاستعارات إمعانا منه في تصوير الاغتراب ونقل الإحساس العميق به، فإذا عقرب الساعة يستعير صفات الإنسان في اللعب والسأم: "ولا يسأمُ العقربُ اللعبةَ الزمنيةَ" (ص 32)، وإذا الشيب وحش مفترس "الشيْبُ يأكلنا" (ص 170)، وإذا الناس كلهم أجمعون حول الشاعر وحوش كاسرة "والناسُ حولكَ نابُ (...) ومخلبُ" (ص 166)، وإذا الشاعر طائر مهيض الجناح، "عارُ الحديقة أن يُكسّرَ طائرٌ منقارَهُ فيها" (ص 166)، ليفسح المجال لشدو الثعالب "ويشدو ثَعلبُ" (ص 166).

ولا يتوانى الشاعر عن اعتماد الكنايات للتعبير عن حالة الاغتراب، فالواقع مر "ثم نعقدُ صلحا مع الواقع المرِّ" (ص 34)، تطل على جدرانه زهور داهمها القيظ "واجهتهُ على الحائطِ الوردةُ اليابسةْ" (ص 38)، فتفجعه حقول من السيوف يشهرها في وجهه أعداء الشعر والجمال والحرية "فلسوف يَنبتُ فيك حقلُ سيوفهمْ" (ص 166).

ويكاد يكون للشاعر مصدر واحد للصور التي يوردها للتعبير عن اغترابه، وهو البيئة التي تحيط به، ويمكن تقسيمها إلى حقلين دلاليين هما حقل الطبيعة مثل: وردة، ناب، مخلب، عقرب، طائر، ثعلب، شوك، تفاح، ظلام، شمس، وحقل الوسائل الحربية مثل: "القيد، السور، حجارة"، كما لا يكاد يغادر منابع الصورة التقليدية، كأنما يتخذها سورا منيعا يتحصن به عن الاغتراب.

4)تجليات الاغتراب في ديوان ظل المطر

يتجلى الاغتراب في الشعر على أشكال مختلفة، تختلف باختلاف الشعراء اتساعا وضيقا، فقد يكون الاغتراب سياسيا، وقد

---

[1]- ينظر: عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، مكتبة كيرّب القاهرة، 1984، ص 161.

2- أحمد درويش، في النقد التحليليّ للقصيدة المعاصرة، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1996م، ص 127.

يكون اجتماعيا، وقد يتجسد في الزمان والمكان، وقد يكون فكريا ثقافيا أو دينيا، وقد يكون اغترابا عن الحياة كلها، وقد يجمع أكثر من شكل، يحفر هذا المقال سعيا منه لاستكناه المرايا التي تجلى عليها الاغتراب في ديوان "ظل المطر" للشاعر محمد جربوعة.

❖ **الاغتراب في الزمان:**

مازال الإنسان يقف إلى يومنا هذا في حيرة من فكرة الزمن، ولأننا لن نخوض في ذلك وإنما سنخوض في موقف الشاعر من الزمن، على اعتبار ما حدث فيه وما سيحدث من متغيرات سواء على الشاعر ذاته أو على ما يحيط به، وبالتالي فهو "دفق لا متناه من الأحداث، هذا السيل هو التعبير الصادق عن ماهية الوجود، بل الوجود بعينه"[1].

والمتلقي لشعر محمد جربوعة يحس معه إحساسا عميقا بألم الاغتراب، كأنما هو خناجر صدئة تنغرز إلى أعماق الأعماق، ويتيه خلف تيهه وتيه قوافله في فيافي الحيرة، يمد معه الجميع عيونهم تلمسا لبارقة من أمل، ويظل الشاعر مجالدا رغم الآلام التي تكشّر عن أنيابها في كل منعرج فتسلخ الأرجل وتكسر الرُّكب، ويظل مجالدا لآلام الظمأ العاتي الذي يدهمه، وليس في جرابه إلا دمه، وأنى للمرء أن يعب دمَه؟

ونحنُ مِن طولِ ما ضـاعت قوافلُنا :: تيهًا، فَهِمْـنَا بـدرب التيــهِ ما يجبُ
تسلّخـتْ في دروبِ الأرضِ أرجلُنا :: وكسّرتْ بعضَها مِن خوفنا الركـبُ
كنا نمدّ على العينـينِ في شغــفٍ :: أكفّــنا.. نمســحُ الآفـاقَ نرتقــبُ
لا يشتهي دمَهُ في الكأسِ ذو ظمإٍ :: أيشتهي حينَ يظما الخمــرةَ العنـبُ؟[2]

ورغم ما يملك الشاعر من جلد وصبر، ومن قوة وبطش، ومن إيمان قوي بصدق قضيته، فإن الزمن كفيل بأن يهزمه، ويرخي عزيمته، إن مشكلة الشاعر محمد جربوعة وهو يقف في معركته هي مشكلة زمنية، ولا عجب فالزمن وحده قادر بأن يحرق الأحلام والآمال، ولا عجب أن يرد في القرآن الكريم "والعصر إن الإنسان لفي خسر" (سورة العصر، الآية 1) وفيه تلميح إلى أن لا أحد من الخلق حتى الإنسان بكل ما أوتي من ذكاء وقوة فاق بها كل المخلوقات يمكن أن يتحدى الزمن، وفي المقطع التالي يكاد الشاعر يعترف بالهزيمة، ويرفع راية الاستسلام، حتى لأعدائه.

ولكننا حينَ نكملُ خمسين عامًا..
نعيد جميع حساباتنا..
ثم نعقدُ صلحا مع الواقع المرِّ..
ثمّ نصافحُ أعداءنا مكتفينَ مِن الباب إذ لم نوفّقْ لندخل منه
ببعض الصريرْ
نبيعُ جميع شعاراتنا ساترينَ ملامحنا

[1]- عبد اللطيف صديقي، الزمان وأبعاده وبنيته، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1995، ص 125.

[2]- محمد جربوعة، ظل المطر، ص 175

حذرينَ[1]

وذات الألم الحارق نلفيه في المقطع التالي، وقد صار العمر وحشا مفترسا، يقف الشاعر أمام عتباته في تعب وإرهاق دون جدوى، وأنى للعواصم الباردة المتجمدة أن تمد له يدا؟

الشيْبُ يأكلنا بالبـــاب.. في نهمٍ :: مثل الجـــراد.. ونبقى نحسنُ الظنّا
لعلهم يفتحـــونَ البابَ.. لو خطأً :: لعلّهم يَرحمـــونَ المتعب المضنى
هذي العواصـــمُ كالأحجار باردةٌ :: على بَنيها.. وتهوى إن هوتْ هَوْنا[2]

إنها لعبة ماكرة يحسها الشاعر في مواجهة الزمن، الذي لا يكتفي بتحديه وإيلامه، ولا يكتفي بتغريبه وتعذيبه، بل يوغل في ذلك عن طريق السخرية والاستهزاء، وما الزمن إلا عقرب يدور تيها ليلسع الجميع غير مبال بمآسيهم، وإن هو إلا آلة رملية باردة تدور لتوغل في التعذيب، إن "الدورة الآلية التي تعيشها عقارب الساعة ليست الزمن الحقيقي الذي يسير على وتيرة واحدة بل تتغير، فالحزن يبطئ الزمن والفرح يسرعه"[3].

تمرّ دهور وتأتي دهورْ..
ولا يسأمُ العقربُ اللعبةَ الزمنيةَ..
يقلبُ ساعات رملٍ على رأسها.. ثمّ يوقفها..
يرجعُ الرملُ بعد الوصول على عقبيهِ ليبدأ رحلته مِن جديدٍ..[4]

وإذا كان الشاعر يقف أمام الزمن مغتربا خانعا مستسلما معترفا بأنه الوحيد الذي يمكن أن يهزمه، فإنه في الآن ذاته يستنجد به، لأن الزمن هو المدرسة الوحيدة التي تملأنا خبرة وتملأنا تجربة، وتكشف أمامنا الحقيقة ناصعة، لتعرفنا بحقيقة الحياة وحقيقة الناس، وبصدق العلاقات مع من حولنا من زيفها، إنه استسلام للزمن وارتماء في أحضانه.

مع الوقت تنسى الذي كنتَ قَبْلا :: ويُصبـــحُ نسيـــانُ ذلكَ سهـــلا
ستَبـــرُدُ أسمـــاؤهـم فيـــكَ يوما :: ويُصبـــحُ ظلمـــهمُ فيك عـــدلا
ستبكـــي قليلا، وتمســحُ منـــهمْ :: عنـــاوينَـــهمْ، ثمّ تقطـع حبـــلا
مع الوقتِ تعـرفُ مَن كان مِيلا :: بعـينـــكِ ممـن بها كـــان كحـلا
ومَن غرسوا فيك في الرُّوح وَرْدا :: ومَن غرزوا فيكَ في الظهر نصلا[5]

ليس الزمن لدى الشاعر إلا ما يحدث بين أنياب تعاقب الأيام والليالي على نفسه فيسرق منها توهجها وطاقتها، وليس الزمن

---

[1]- م، ن، ص 34.
[2]- م، ن، ص 170.
[3]- مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2004، ص 15.
[4]- محمد جربوعة، ظل المطر، ص 32.
[5]- م، ن، ص ص 5- 6.

إلا الأحداث الجسيمة التي تغير ذاته وما حوله إلى ما لا يرغب ولا يسعى.

❖ الاغتراب في المكان

إذا ظل الزمن لغزا لدى الإنسان فإن المكان ليس كذلك البتة، وإذا ظل مفهوم الزمن معنويا هلاميا لا يمكن القبض عليه، نعبر عنه من خلال ما نحس، ومن خلال ما يحدث من متغيرات، فإن المكان تجلى بمفاهيمه المادية الملموسة، وارتبط به الإنسان خيرا وشرا حبا وكرها قربا وبعدا، وبمثل ما تجلى الزمن في الإبداع، تجلى المكان وطنا وبيتا وسجنا ومقبرة ومعبدا ومخمرة، وما شئت من أماكن وأحياز تُحدد وفق نظرتنا إليها وعلاقتنا بها، فكيف تجلى المكان في ديوان "ظل المطر" لمحمد جربوعة؟

يرتبط المكان في ذات الشاعر بالمشاعر السيئة فليس هو إلا حزن وجرح، وكلما تعدد المكان تعدد الحزن والجرح، إن المرء ليظل وحيد الجرح إذا ظل وحيد المكان، فإذا شتتته الأحلام فضرب في مشارق الأمكنة ومغاربها زاد جرحه، ولا شك أنه إحساس يشترك فيه الشعراء العرب الذين يحملون مشروعا، ومعه يحملون باقة من ورود، يرونها تذبل وردة وردة كلما توزعتهم الأمكنة.

وصار لنا بعده ألفُ جرحٍ وجرحٌ
وحزنٌ على عدد الأمكنهْ[1]

ويكشف الشاعر عن خيبته وهو يؤوب فلا يجد إلا قحطا وجفافا، أشبه بالطفل يعود متلمسا دفء أمه فلا يجد إلا قبرها وعليه وردة يابسة، ما أتعس ذاك وقد عاد بعد لأْيٍ، وقد اشتعل المفرق شيبا، وما أتعسها من ليلة للعودة!

وفي ليلةٍ حين عاد وقد شاب مفرقهُ..
واجهتهُ على الحائطِ الوردةُ اليابسهْ[2]

يحصر الشاعر محمد جربوعة المكان في مقاطع أخرى في الوطن، وهو إذ يذكره يقرنه بالألم والحسرة، والإحساس بالغربة، وطرح الأسئلة الحائرة، وهو يحس فيه بالغربة الحارقة، وسريعا ما ينصرف بنا الفهم عن الوطن/ الجغرافيا إلى الوطن الأنظمة الفاسدة المتعفنة، التي تغرب أبناءه المخلصين الذين طالما قدموا أنفسهم ونفائسهم من أجله ليقدم بدنه وجبة شهية لأعداء الوطن.

وحين يكون لنا (وطنٌ) دون كل البلادِ مجازا
فإنّ المجازَ سيجعلنا (بالقياس) بأوطاننا غرباءْ
وكيف يصير مكانٌ بلادا هنا ويصير اغترابا هناكَ؟
لماذا نسمّي مكانا على كوكب كاملٍ وطنا؟
لماذا نلوّنه في دفاترنا دون كل البلادِ.
ونُقتل من أجله شهداءْ؟
وماذا على وطنٍ نحونا؟
وإن كان من واجبي أن أموتَ لأحفظَ أرضَ بلادي من الغرباءِ

[1]- م، ن، ص 35.
[2]- م، ن، ص 38.

فهل واجبي بعد ذلكَ في أن أجوعَ ليأكل غلاتها الغرباءْ؟[1]

ويجري الشاعر في ذات الاتجاه حوارا بينه وبين طفلة تسأله ببراءته عن الوطن "ما الوطن؟"، ويصوره لها على أنها حلوى، وما تكاد شهيتها تفتح وأحلامها ترسم لتشتري هذه الحلوى، حتى يصدمها الشاعر بوصف البائع بأقذع الصفات التي عجزت اللغة أن تعبر عنها فاستعاضت بنقاط... ليكشف الشاعر بكثير من الحرقة، وكثير من الاغتراب، أن البائع قد قتل أبا الطفلة وباع للشاعر الكفن، إن قتل الأب هو قتل العش الذي نؤوب إليه ونطمئن فيه، وبالتالي قتل الأحلام والطفولة، وإن منح الكفن للشاعر ليس هو إلا تكميما للأفواه وقتلا للأحلام، للكلمة الحرة الصادقة.

(وما الوطنْ؟)

فأقول: كالحلوى..

فتسألني: بكم؟

فأجيبها: يا طفلتي.. فوق الثمنْ .

فتقولُ لي: في أيّ دكّانٍ يباعُ؟ ومن هناكَ يبيعهُ؟

فأقول: أبناء (الْ.....).. وأصمتُ عندها..

فتقولُ: مَنْ؟

أبناءُ منْ؟

أبناءُ منْ؟

فأقولُ: مَن قتلوا أباكَ لكيْ يبيعوا لي الكفنْ[2]

إن الشاعر لم ينقل للطفلة إلا خيباته وانكساراته، وما الطفلة إلا عصفورة أحلامه ووردة آماله، وما أتعس الشاعر الإنسان وقد ضاق عن حلمه وطن واسع شاسع! لم يطلب منه إلا عشا للأمان وحبة قمح يقمع بها كيد الزمان، وفننا يغرد عليه في أمان.

لماذا يكون على وطنٍ واسع أن يضيق على حالمٍ

لا يريد سوى ما تريد العصافيرُ

عُشٌّ وحبة قمحٍ وغصنٍ به برعمانِ لأجل الصفيرْ؟[3]

ما أشد حرقة هذا الاغتراب! وهي تذكرنا بما عانى منه كبار شعراء البشرية عموما، وكبار شعراء العربية على وجه الخصوص، من الشنفرى إلى ابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء والسياب ونزار قباني.

ولا يكتفي الشاعر محمد جربوعة بإطلاق رصاص شعره على الأنظمة الحاكمة التي سرقت منه حق الحلم في الوطن، بل يوجه أيضا نيران كلماته إلى شعوب هذه الأرض وقد صار كل ما حولها خرابا، يجمع من بين أنقاضها ألحانا قديمة تبعثرت هنا وهناك،

---

[1]- م، ن، ص 39.

[2]- م، ن، ص 144.

[3]- م، ن، ص 31.

رغم أنه دون سند ودون قوة:

وهأنذا.. في ريـــاحٍ أميـلُ :: وبين خرائـــبِ قـــومي أجولُ
أجَمّعُ في الناي لحـنا قديـما :: ولي حيــن أجمعـــهُ ما أقولُ
كنخل العراقِ.. أنا دونَ ظهرٍ:: ووجهي كوجـه دمشـــقَ نحيلُ
ومثلَ مـآذن صَنْعـــاءَ عيني:: بها خافتٌ من ضياءٍ ضـئيلُ[1]

وهذا يذكرنا بحلم الشيخ العربي في قصيدة السياب "إرم ذات العماد":

وقال جدنا ولج في النشيج:
-ولن أراها بعد أن عمري انقضى
وليس يرجع الزمان ما مضى
سوف أراها فيكم فأنتم الأريج
بعد ذبول زهرتي فإن رأى إرم
واحدكم فليطرق الباب ولا ينم
إرم في خاطري من ذكرها ألم
حلم صباي ضاع آه ضاع حين تم
وعمري انقضى[2]

يعود الشاعر محمد جربوعة إلى الماضي الجميل، ليبعث إلى ذاكرته وطنا شعشع بالنور والأمجاد، وفي طرفة من عين نائمة غافلة ضاع منه كل شيء، فلا شيء في الوطن إلا أرضا يبابا، وإلا منافيا، ودموعا ولوحات تسفر عن مآسي لا تنتهي.

وكانَ لديّ بـــــلادٌ وحلـمٌ :: وصيـفٌ وسنـــبلةٌ وحقـــــولُ
وعينـــانِ فيها كـلامٌ كثيرٌ :: وحُبٌّ ومكـــرٌ وقـالٌ وقيـــــلُ
وكانَ لديَّ حـــدائقُ فُـــلٍّ :: وكانَ لـــديّ (فـراتٌ) و(نيـلُ)
ونمتُ وحين أفقـــتُ مساءً :: على الزيتِ ألقى السـلامَ الفتيلُ
رأيتُ الحفـاة إلى كلِّ منفى :: يسيلونَ.. والدمعَ منـــهمْ يَسيلُ[3]

وإذ يبلغ اليأس بالشاعر منتهاه، وقد حاصرته نبال اللؤم والخيانة، رغم ما في نفسه من كبرياء، ورغم ما في قلبه من عزة وأنفة، يصيح في قومه وفي بلده:

ماذا أقولُ وما في الـوقتِ مُتّســـعٌ :: ولا يطاوعني شـــرحٌ وإيضـاحُ؟

---

[1]- م، ن، ص 100.

[2]-بدر شاكر السياب، بدر شاكر السياب، دار العودة، بيروت، لبنان، 2016، ص 349.

[3]- محمد جربوعة، ظل المطر، ص 100.

وما أنا بالــذي يحــكي حــكايتــهُ :: للسامــرينَ إذا فــي ليلهمْ باحوا
هذي البلادُ لها في الغــدرِ عادتُها :: وعندها لِطقوس (العيـد) (أتراحُ) [1]

هكذا بكل صراحة، إنها بلد للغدر الذي صار لها عادة وطبعا، وإنها بلد البؤس والأتراح وقد صارت لا تحسن إلا الندب والنواح حتى في أيام أعيادها.

ثم لا يملك الشاعر صبرا أكثر فيسل سيف هجوه في وجه أرض كثر ضحاياها، ولحقها المسخ والفسخ فإذا شمسها ظلام وشوكها تفاح، والقيود فيها أساور يفاخر بها العبيد، وإذا الأنجاس المناكيد سادة يجمعون القوة بأيديهم ينطحون بها من يصرخ في وجوههم.

يا ويحَــها كثُرتْ فيها خناجــرها :: وكلُّ بيــتِ ذبيــحٍ فيه ذبّــاحُ
لا أرض تشبــهُها.. لا مثلــها بلدٌ :: ظلامها شمسـها، والشــوكُ تفاحُ
قيــودها أسْــوِراتٌ للعبيــد بها :: والظلــمُ فيها قوانــينٌ وإصــلاحُ
المتْعَبُــون بها، سِرُّ البــلاء بــها :: وكلّــهمْ وبلا قــرنيــنِ نطّــاحُ
جوعى، وقمحٌ كثير في مخازنــهمْ :: أشباح ضوءٍ... وفي الظلماءِ أشباحُ [2]

❖ **الإنسان والاغتراب:**

لا يكتفي الشاعر محمد جربوعة بالاغتراب زمانا ومكانا وأرضا، بل نراه يحس بالاغتراب ممن حوله، وقد أُركسوا، يسوق إليهم سحائب الحب ويعصر لهم قلبه وفاء وإخلاصا، فلا يواجهونه إلا بالخيانة ونكران الجميل، وتلك خديعة الطبع اللئيم على حد قول المتنبي.

هنا أحبَّ.. وأعطى قلبَه.. وهنا :: لمْ يُعطَ قلبا.. وخــانوهُ.. وما خانا [3]

ولا يستثني الشاعر محمد جربوعة طبقة المثقفين وخاصة الشعراء وهم يخوضون معه منافسة غير متكافئة فيسلون سيوف الحقد، وإذا كان اغتراب الشعراء عما حوله من عامة الناس ثم من طبقات المثقفين والمبدعين والشعراء تكاد تكون واقعا في كل عصر ومصر، فإنها مع المتنبي كانت أعمق، وقف المتنبي في حلبتها شامخا غير مبال بكل من ينوشه بغمز ولمز ونقد، حتى قال:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم [4].

ولا عجب إنه المتنبي، ولا عجب فقد ذوو وظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كوكبا دريا يوقد من شجرة الإبداع، تكاد كلماته تضيء ولو لم يمسسها نور النقد والبحث والدرس.

إلى ذات المنحى يذهب محمد جربوعة، وليس من فضل له عليهم سوى أن خط كلماته باللهيب والزنابق، فهي طلق في وجه العدو وفي وجه الظلم والفساد وفي وجه الانحناء والانبطاح، ثم هي باقات تنثر عبق الحب والجمال.

---

[1]- م، ن، ص 95.

[2]- م، ن، ص ن.

[3]- م، ن، ص 18.

[4]- المتنبي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، شرح ناصف اليازجي، مج 2، دار بيروت، بيروت، لبنان، 1981، ص 120.

هم يكرهـونكَ.. أنت وحـدكَ بينـهمْ :: مَن باللهـيبِ وبالزنابـقِ يكـتبُ
هم يكرهـونكَ.. ليـس مثلك شـاعرٌ :: متوكئا يـرمـي العدوّ ويغـلِبُ
هم يكرهـونكَ.. أنت مَشـرِقُهم وهُمْ :: لكَ حينَ تخذلكَ المشارقُ مَغرِبُ[1]

يحيلنا تكرار "هم يكرهونك" على الإحساس الأليم في أعماق الشاعر محمد جربوعة بالاغتراب الشديد الذي يصر على أن يقابله بتحدي اللهيب وتحدي الزنابق، يد للقوة ويد للمحبة، وتحيلنا "هُم" في "هم يكرهونك" على اللامبالاة بمن يناوئه فهم مجرد ضمائر غائبة، ويحيلنا قوله "وما مقامك بينهم أيها البكري" إلى قول المتنبي الذي يندرج معناه في ذات السياق:

وما مقامي بأرض نخلة :: إلا كمقام المسيح بين اليهود[2]

وبحرقة كبيرة يصرخ الشاعر محمد جربوعة في ذاته الشاعرة كي تلزم الصمت، فلعل الصمت أنفع وأجدى مادام القوم قد أطربهم ثغاء الثعالب فكسروا منقار الكروان.

لا شيء يغـري بالكـلامِ.. فلا تقـلْ :: شيئا.. فصمـتكَ للشجـاعة أنسـبُ
عـارُ الحـديقة أن يُكسّرَ طـائرٌ :: منقـارَهُ فيـها.. ويشـدو ثَعـلبُ[3]

ولا شيء يعجب وقد اختلط حابل القوم بنابلهم، فصاروا لا يفرقون بين كع وبع، وقد تلبست العُجمة ألسنتهم فتاهوا في فيافي الرطانة بعيدا عن بساتين الإعراب، وعَمُوا عن لوحات البلاغة بعد أن خلبت أذواقهم مركومات مسلوبة.

ماذا تغيّـرَ؟ والقـوافـلُ لم تـزلْ :: مِن بعد قطّـاع الصحـارى تُسـلبُ
لازال شعـركَ فـي مجالسِـهم هنا :: كالأمس، يُخلطُ بالحشيش، ويُشربُ
(لا شيء يُعجبُ).. كلّ ما في الأمر :: أنَّ الضمَّ أصبحَ حين يَرفعُ يَنصبُ[4]

ويعود الشاعر مدثرا بالخيبة وهو يمد يديه يطلب نجدة من قومه فتعود إليه مرتهنة بالخيبة، وقد طوقته الطلول فيصيح مفجوعا يستوقف صحبه ويستبكيهم، لكن المكان يضيق بهم، ليس لضيق المكان ولكن لاتساع فاجعة الأطلال، وقد امتدت ملء البصر والخيال، وتتعبه الخيبة وهو يدق على نوافذ القوم ليجيبه الفراغ والغياب والصمت والموت، لاشيء بين الأطلال، ولا من ينبس من خلف النوافذ وقد تمطط الخراب في كل مكان، وقهقه الذبول في كل خراب.

تُرى أين أوقف صحبي وأبكي :: وكلّ عواصـم قـومي طلـولُ؟
أدقّ نـوافذَ مَن لـم يعـودوا :: هنا.. حيث ألقى عصاهُ الرحيلُ
وتلحسُ عطشـى ورودٍ شِفَاهًا :: لها، ويقهقـه فيها الـذبـولُ
فأصرخُ: يا ويحَ قومي أغابوا :: وليـس لهـم في الغيـاب دليلُ؟[1]

1- محمد جربوعة، ظل المطر، ص 167.
2- المتنبي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، شرح ناصف اليازجي، مج 2، ص 114.
3- م، ن، ص 166.
4- م، ن، ص 166.

إن فجيعة محمد جربوعة في قومه أشد وطأ وإيلاما من فجيعة الملك الضليل حين صاح في رفيقيه مستوقفا مستبكيا.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل :: بسقط اللوى بين الدخول فحومل[2]

ذاك وجد من يسمعه ويقف إلى جانبه ويبكي معه، ولم يجد محمد جربوعة حوله إلا أطلالا حزينة كئيبة باردة خرساء، تملأه فجيعة واغترابا، وهي فجيعة طالما ملأت نفوس كبار المثقفين والمبدعين في كل تاريخ البشرية، وفي تاريخ الأمة العربية مغربا ومشرقا خاصة في العقود الأخيرة من تاريخها حين صار المثقف حاملا لهمومها باكيا على مآسيها وساعيا للنهوض بها ولو قدم نفسه قربانا لذلك، إن محمد جربوعة ليس مجرد شاعر يرصف الكلمات ليطرب، ولا شاعرا ينمق العبارات ليلهج بالمديح، ولكنه شاعر قضية وحامل رسالة، إنه ذاك المثقف العضوي الحركي الذي يئن لآلام أمته ويحلم لها بالمستقبل الحالم الزاهر، فهل من سبيل لصد طوفان الاغتراب، وهل من طريق لرد أمواج الأحزان؟

❖ مواجهة الاغتراب:

يبحث الشاعر محمد جربوعة عن سفائن إنقاذ ليرد بها هجمات تتار الاغتراب، والعادة لدى الشعراء أن ينكفئوا على أنفسهم، ليفروا إلى عوالمهم الداخلية يجترون عن طريق أشعارهم انتكاساتهم، وعن طريق تخيلاتهم ارتكاساتهم، فيصنعون من شعرهم حصونا شامخة يلوذون بها، وهم بذلك أشبه بالمجانين الذين يمارسون الهروب إلى أعماقهم، وهم بذلك يقطعون كل صلة بينهم وبين العالم الخارجي الذي يحيط بهم، فلا يمدون يدا بيضاء لحبيب ولا يشهرون سيوفا مشرعة لعدو، غير أن الشعر يخيب ظن محمد جربوعة فلا يكون مركبه الوطيء ينجيه من كيد القراصنة اللئام، ولا سيفه البتار يعمله في نحور المتربصين به.

ولما كتبتُ على رملهِ في المساء
اكتشفتُ مواجهة الشعر والماءِ..
لا مدّ للشعر.. لا جزرَ.. لا موجَ..
لا غضبا ينتهي زبدا في الصخورْ
وللبحر كلّ الذي ليس للشعرِ..
للبحرِ غرقاه ليلا..
ولا يستوي من يموت غريقا نهارا
يرى مشهد الموتِ من حوله واضحا..
بالذي لا يرى في الظلام[3]

وعزاء الشاعر أنه ليس أولا ولن يكون أخيرا، تاريخ البشرية حافل بقتل الشعراء، حافل ببتر ألسنتهم التي أبت أن تلهج بمدح الأبالسة، وهذا خيار الشاعر محمد جربوعة، إما أن يزهر الشعر نبلا وشهامة وكبرياء أو لا يزهر على الإطلاق، إما أن يصدع

---

[1]- م، ن، ص 101.
[2]- م، ن، ص 101.
[3]- م، ن، ص 30.

الشاعر كما الأنبياء بالحق الذي يراه سفينة إنقاذ للبشرية أو ليخرس الشاعر، ولرب صمت أبلغ من كلام، ولو تناوشته كلاب وذؤبان، ومخالب وبراثن.

ما أنتَ أوّلُ شاعـــــرٍ في هـذه الـ :: ـصحـــــراءِ يُقتل مَرّتين ويُصلبُ

ويقـــومُ يشـرحُ للجنـاةِ مـــــرادَهُ :: وجراحُه الحَمْرَا الكثيـــرةُ تثعـبُ

إن كـــان قـولكَ قبـــل هـذا واجـبا :: فاليوم صمتُكَ يا (محـمّدُ) أوجَـبُ

فاصمتْ.. فإنّ الشعرَ يُفصِحُ صامتا :: ويقـولُ بالصمـــت الرهيب ويُعرِبُ

فلســوف يَنبتُ فيك حقـلُ سيوفـــهمْ :: ولسوفَ تمـــلأكَ الثقـوبُ، وتَتعبُ

والناسُ حـــولكَ نابُ واشٍ حاســـــدٍ :: ما عنده شـرف الرجالِ.. ومخلبُ[1]

فإلى من تكله الأقدار وقد خيب الشعر آماله، وبأي الأسوار يحتمي وقد نبتت في تضاريس قلبه سيوف أحقادهم، ونيوب أضغانهم، وقد تخلت عنه القبيلة، وصدته يثرب، فلا أهل ولا أنصار.

وكما ينكفئ الشعراء على ذواتهم لتفيض قيح حزن وطحالب أتراح، قد يهرعون إلى الكأس الدهاق تذهب ما ألم بهم، تنسيهم زمنا، ليعودوا إليها كلما تذكروا فإذا هم مدمنون، وإذا هي ملاذهم الآمن كما كانت ملاذ أبي نواس حين يقر:

لا تلمني فإن اللوم أغراء :: وداوني بالتي كانت هي الداء[2]

وحتى الكأس تخيب أمل شاعرنا محمد جربوعة، لأنها ليست الكأس التي يشتهي منها سكرا ولا القدح التي يترعها فتهز نفسه نشوة ورضًى وغبطة.

لا الكأس كأسٌ إذا لم تُغرِ رغوتُها :: عينَ الحزينِ، ولا الأقداحُ أقــداحُ

فإن رأيتِ يدي بالكـــأس راجفـةً :: فلتملئيها.. وبعض الوَمْـيِ إفصاحُ[3]

وما أشد وقع الخيبة حين تكون الكؤوس فارغة، لأنها ستكون بلا معنى، فلا بها عنب تعصر، ولا بها راح تسكر فتنشي وتنسي.

بالكـــأس، لا عِنـبٌ حَـبٌّ، ولا راحُ :: ولا بها ما به الأحزانُ تنزاحُ

وليس في الأرضِ أرضٌ كالبلادِ لنا :: فأين باللهِ قولـي أينَ نـرتاحُ؟[4]

وكأننا نسمع الدنيا تردد مع الشاعر في غربته فأين باللهِ قولي أينَ نـرتاحُ؟ ويقينا لم يبق مما يمكن أن يركن إليه بعد الشعر والكأس إلا المرأة، فما حكايته معها؟

ترتقي المرأة في شعر محمد جربوعة إلى الرمز الذي لا يمثل الخلاص ولكنه يمثل الرفقة في الدرب بحثا عن الخلاص من خناجر

---

[1]- م، ن، ص 166.

[2]- أبونواس، ديوان أبي نواس برواية الصولي، تحقيق بهجت عبد الغفور الحديثي، ط 1، هيأة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الإمارات، 2010، ص 53.

[3]- محمد جربوعة، ظل المطر، ص 94.

[4]- م، ن، ص 93.

الاغتراب، لكنها ستظل رفيقا دون جدوى لأن ما لحقه سيلحقها لتصير هي أيضا ضحية كما هو ضحية ينهشهما الاغتراب ببراثنه الذابحة، ليشنقهما الشيب والهرم وقد كلت أياديهم طرقا على أبواب الخلاص، يقول:

أنا وأنتِ هنا في باب عاصـــمةٍ :: مِن نصف قرنٍ، وقوفًا.. نطـلبُ الإذنا
الشيْبُ يأكـــلنا بالباب.. في نهمٍ :: مثل الجـــراد.. ونبقـــى نحسنُ الظنّا
لعلهم يفتحـــونَ البابَ.. لو خطأً :: لعلّـــهم يَرحمـــونَ المتعب المضنى
هذي العواصـــمُ كالأحجار باردةٌ :: على بَنيها.. وتهـــوى إن هـــوتْ هَوْنا[1]

وكأنما وهو يطرق نسمع طرقات شيخ السياب تهوي قبضته المتعبة المعروقة على أبواب إرم المدينة العربية الأسطورة:

وقفت عندها أدق
(...)
وحين كلَّ ساعدي
وملني الوقوف في الظلام
(...)
جلست عند بابها كسائل ذليل
جلست أسمع الصدى كأنه العويل
يلهث خلف حائط من حجر ثقيل
كان بين دقة ودقة يمر ألف عام
وما أجاب العدم الخواء
وحين أوشك الصباح يهمس الضياء
نعست نمت واستفقت مر ألف جيل[2]

لكن الشاعر الذي أنس بالمرأة التي وقفت معه إلى جانبه، تشد إزره دون جدوى لتشيخ معه وتتجرع معه سم الاغتراب سريعا ما يتخلى عنها، كأنما كانت بالنسبة إليه مجرد سراب بقيعة، ليقف حاسرا في مواجهة خميس الاغتراب، لكنه كسيف مكلوم مثخن بالانكسارات والشروخ وقد ضيع قوته على المواجهة.

أنا لم أعُدْ أهوى.. فقلبي فـــارغٌ :: كقلـــوبِ أهـــل الله والنُسّـــاكِ
لي ما يصدّ عن الهوى، وموانـعٌ :: كالسُّـور حولَ فمـــي، وما أدراكِ
عندي شروخ في الجبين، وأدرُبٌ :: في أسـفلِ القدمينِ مِن أشـــواكِ
ولـديّ حُلمٌ لا أبـــــوح بـه إلى :: نفسي، وسيفٌ ضاع مِنْ أملاكي

[1]- م، ن، ص 170.

[2]- بدر شاكر السياب، بدر شاكر السياب، دار العودة، بيروت، لبنان، 2016، ص 349.

وسرابُ أشياءٍ.. جميلٌ خــادعٌ :: كأذانِ إفطـــــارٍ لدى الإمساكِ[1]

ونحس الشاعر وقد قمطته الحيرة وهو يتخلى عن كل شيء، وهو يكشف جراح طعنات أعدائه، أشبه بقارب قديم فارغ تتقاذفه أمواج ماكرة عند شاطئ صخري تتمتع بارتطامه وتكسره.

وكطائر الفنيق العربي الأسطوري، ورغم الطعنات والخيبات، ورغم جراح الاغتراب القاتلة، سيظل الشاعر حيا يتنفس، يملأ رئتيه متحديا الموت والفناء.

اِسحب لصدركَ ريحَ الأرض قاطبةً :: رغمَ الجراح، ورغم الحـــــزن، والتعبِ[2]

فهل يكتفي الشاعر بهذه الأنفاس ليستسلم للضعف والخور؟ ليستسلم لزنازين الاغتراب الموحشة الباردة المظلمة؟ أم سيبحث له عن حصون أخراة؟

7-الاحتراب في ديوان ظل المطر

الاغتراب معركة نفسية يخوضها المبدع بكل ما يملك من قواه ضد واقع تمطى على أنفاسه بكلكله ينتهي غالبا بإزهاق نفسه في متاهات الواقع المتردي، وعلى شكل هذا الواقع يكون الاغتراب سياسيا أو اجتماعيا أو ثقافيا، مكانيا أو زمانيا، وتاريخ الشعر العربي الطويل العريض يقدم لنا نماذج كثيرة من اغتراب الشعراء، وقد تعمق ذلك في العصر الحديث خاصة مع الشعراء الرومانسيين، الذين غالبا ما ينتهون إلى الخور والانهيار أمام ضربات الواقع، فيقدمون أنفسهم فريسة للانحراف النفسي أو الموت أو الإغراق في كؤوس الوهم، فيهوون وقد حلموا أن يرتقوا ويشرقوا وينتصروا، ولا عجب فنفس الشاعرة أمّارة بالمحبة والرقة لا يمكنها أن تصبر على مقاومة غيلان الواقع، إلا لدى ثلة قليلة ممن أوتي جلدا ووعيا، ومن حمل مشروعا عميقا ينافح عنه كما ينافح عن وطنه وشرفه، فأين يقف شاعرنا محمد جربوعة؟

رغم الواقع الأليم الذي يعيشه الشاعر محمد جربوعة، واقعا مترديا عفنا على كل المستويات السياسية والاجتماعية والفكرية، مما يجعل الشاعر مغتربا بامتياز كما غيره من كبار الشعراء لأنه يحمل هم أمة يرى حصونها تنهار الواحدة تلو الأخرى، فتنهار معها أحلامه في أمة عظيمة ناهضة يغرد فيها بأمجادها ليسمع الكون أجمع، إلا أن الشاعر لم يكن مجاريا لتيار الانهزام والانخذال والانكفاء على الذات والهروب من مواجهة الواقع القاسي، بل كما الكبار كان له مشروعه في المقاومة والتحدي مهما كانت نتائج ذلك، لذلك ارتضينا لهذا العنصر مصطلح الاحتراب ليقابل مصطلح الاغتراب.

1)معجم الاحتراب

للاغتراب معجمه الذي شكل حقلين دلاليين، أحدهما مادي والثاني معنوي، ولكنهما اتفقا على ما يتولد عن الاغتراب من آلام وانكسار وإحساس بالرفض، فما معجم الاحتراب؟

يقوم معجم الاحتراب أيضا على حقلين دلاليين الأول يكشف عن وظيفة الشاعر في مواجهة مشروع الاغتراب، ومنها "يحرس، يرتق، يرسم، ينبت، أصنع، يجبر"، وهي أفعال، مِمَّا يمنحها قوة الانجاز، وغالبا ما تكون مضارعة مما يعني دلالتها على الحاضر

[1]- محمد جربوعة، ظل المطر، ص 66.

[2]- م، ن، ص 191.

والمستقبل، وغالبا ما يكون هذا المستقبل قريبا، لأن الشاعر يربط أفعاله المضارعة بالسين، ومن مثل ذلك قوله:

هنا سيَرْتُقُ أعلاما ممزّقةً :: ويرسمُ الأرقَ الليليَّ أوطانا[1]

أو قوله:

أقول سأصنعُ من ضيق حالي :: حلولا.. وضيقُ الحزينِ حلولُ[2]

ويضم الحقل الثاني ألفاظ القوة التي يواجه بها الشاعر مشروع الاغتراب، ومن ذلك "أبقى، سَيّد، عزة، عنيد، عزيز، جواد، ركض، الجمر، مبتسم، الفانوس، جذوة، بشارة، لا أموت، أنا البحار، أنا الصحراء، خيل الفاتحين. العاصف، القاصف، المستبدّ، العنيف، همجيّ، الجاهلي، صخرة، نبع، قضاء، مشيئة"، ومعظمها يدل على القوة النفسية والمعنوية كالسيادة، والعزة والعناد والنبع والمشيئة، والفانوس، والبشارة، مقابل ما يدل على القوة المادية كالركض، والخيل، والعصف، والقصف، والصخرة، ومن ذلك قوله:

قلبي عنيدٌ، عزيز النفس، يشبهني :: إن قيلَ (فافعلْ كذا، لو مَرّةً رَفضا[3]

وقوله:

أنا البحار.. أنا الصحراء إن غضبتْ :: أنا غدي القادم المولود من أمسي[4]

2)تخييل الاحتراب

يلتجئ الشاعر محمد جربوعة إلى منبع التخييل، راسما بريشة خياله لوحات لتحدي الاغتراب، كأنما يحاول أن يظهر في ساحة المعركة عاصفا يملأ قلب عداته فزعا، فهو كل الوطن العربي "أنا الخريطة" (ص 74)، وهو سطوة الموج "أنا البحار" (ص74)، وهو رهبة الصحراء "أنا الصحراء إن غضبتْ" (ص 74)، وهو الانتصار والخلود "أنا غدي القادم المولود من أمسي" (ص 74)، وهو المتفرد المتمرد على كل تبعية "عاش في الطير مِن دون سربِ" (ص 105)، وهو الممتد قامة يعانق الأنجم، حتى استكان النجم إليه فاتخذ جبهته عشا له يطمئن فيها ومنه يفرخ آلاف النجوم "طويلٌ أنا.. جبهتي عشُّ نجمٍ" (ص 105).

يستعير الشاعر للحلم الجميل لهيب الكوكب الدري، ويظل يحرسه يطوقه بيديه الحانيتين "يبقى ليحرس في الفانوسِ جَذوتهُ" (ص 17)، يرسم من أرقه أوطانا "ويرسمُ الأرقَ الليليَّ أوطانا" (ص 17)، وينثر في كل زاوية قمصانا للبشائر والأحلام "هنا سيلقي قميصا من بشارتهِ" (ص 17)، ليبقى قلبه قلاعا خضراء للاعتصام "قلبي سيبقى عاصمةً خضراءَ" (ص 15)، ويبقى جوادا راكضا في تحد للفناء والضعف "قلبي جوادٌ، ومهما النبض يخذلهُ :: يبقى، إذا قيلَ: أنهى رَكْضهُ، رَكَضا" (ص 25)، كاتبا أحرفه الخالدة باللهيب والورود "مَن باللهيبِ وبالزنابقِ يكتبُ" (ص 167).

والملاحظ أن للاحتراب قاموسا مختلفا يختار له صورا من الطبيعة القوية في الغالب: "البحار، الصحارى، الطير، النجم، الفانوس،

---

[1]- م، ن، ص 17.

[2]- م، ن، ص 103.

[3]- م، ن، ص 25.

[4]- م، ن، ص 74.

الجذوة، الجواد، اللهيب، الزنابق".

3)تجليات الاحتراب في ظل المطر.

رغم كل الانكسارات يعلن الشاعر بكل ثقة تحديه لكل الفجائع والآلام لينصب نفسه حارسا صنديدا للأصالة والانتماء، يلقن الناس أمجاد قومه التي هي أمجاده، يطعم جذوة الفانوس زيتا ليزداد توهجا، يرتق راياته وقد عاد بها من المعارك التي خاضها وخاضها قومه ضد أعدائهم، بل هو أكثر من ذلك لأنه يبذر في الدروب آمالا ويرسم في الليالي أقمارا.

هنا سيبقى جميلَ الجُرح، مبتسما :: يحكي لمن جهلوا التاريخَ ما عانى
يبقى ليحرس في الفانوسِ جَذوتهُ :: ويملأَ الكـــونَ (ضاداتٍ) وقرآنا
هنا سيَرْتُـقُ أعـــلاما ممـــزّقةً :: ويـــرسمُ الأرقَ الليليَّ أوطـــانا
هنا سيلقي قميصا من بشـــارتهِ :: إذا أوانُ بنـــي أعـــمـــــامه آنا[1]

وسيظل وفيا مبتسم الجراح، يزرع الدروب اخضرارا، يلوح براية الأجداد لتظل شامخة خفاقة، يعد خيولهم لحروب قادمة تعيد لهم ما ضيعوا من أمجاد.

أنا هنا، فـوق كُدْيـاتِ الوفـاء هنا :: وفي يـدي رايةُ الأجـــداد، لوّاحُ
بـــاقٍ لأزرع شيـئا، أو لأحصـدهُ :: وفي يدي مصـحفٌ، شِعرٌ، وألواحٌ
باقٍ لأعلـفَ خـيلَ الفاتحـينَ هنا :: وأحفظَ العهدَ في أعقاب مَن راحوا[2]

وكأنه ينصب نفسه حارسا لضمير الأمة أن يغفو أو ينام، وكأنه النور المتوهج يجلو عن الأبصار عماها وظلماتها، فلا يملك إلا أن يتحدى الموت.

أقول لهم: لا أموتُ.. وأبقى :: أخا الليـــلِ حينَ عليّ يطـــولُ[3]

وحتى إن تنكر له قومه سيظل يمشي واثق الخطو ملكا، غير آبه بحيرتهم وأسئلتهم، غير مبال بما منعوه عنه من ضوء وشمس، فضوءه وشمسه في أعماقه.

غَدُهُ كحاضـــر يومـه، وكأمـــسهِ :: يمشـــي بلا ظلّ كسيّـد نفســـهِ
لـم يسألـــوه إذا مشـى في شـارعٍ :: يا أيها المـاءُ الحـزين بعـــرسهِ
لا ظل عندكَ.. كيف تمشي هكذا؟ :: ما للمسافـر في الـدروب كأنْسِـهِ
هو لا يجيب.. فقط يواصل سَيـرهُ :: بين البيـوت.. متمتما في همسهِ
لو أنصفـــوهُ لربّمـا لـم يحرجـــو :: هُ.. فَعيبهُ في ظلـه، مِن شمسهِ
هي لم تطلّ، فمن سيعكس شكلهُ؟ :: ولكل شـــيء ظالـــمٌ مِن جنسهِ

---

[1]- م، ن، ص 17.
[2]- م، ن، ص 95.
[3]- م، ن، ص 101.

ولربما من عـزة فـي نفســـــهِ :: لم يرضَ دون ذوي الظلال بدَوْسـهِ[1]

ثم هو لا يبالي بالموت الذي يترصده في كل زاوية، لا يبالي بما تشحذه له سيوف الاغتراب ونصاله، لأنه على يقين أنه سيظل خالدا، عزيز النفس، عنيد القلب، يبقى خالدا لا نكاية فيهم ولا إمعانا في تحديهم وإذلالهم، ولكن جوادا راكضا مهما تعاورته سهام الضعف والإعياء، وليكون قلبه عاصمة خضراء للحب، عاصمة لغد مشرق متوهج عبق، وتلك هي وظيفة الشعراء الكبار يحترقون كالشمع لينيروا للناس دروبهم، ويذوون لينعشوا الناس بشذاهم، ويهوون لتظل شعوبهم واقفة شامخة، إنهم حملة رسالة للخير والحب والجمال.

قلبي سيبقى – إذا ما مِتُّ– عاصمةً :: خضراءَ تَبعثُ في العشّاق ما انقرضا
قلبي عنيدٌ، عزيـز النفس، يشبهني :: إن قيلَ (فافعــلْ كذا، لو مَرّةً) رَفضا
قلبي جـــوادٌ، ومهما النبض يخذلهُ :: يبقى إذا قيلَ (أنهى رَكْضهُ)، رَكَضـا[2]

وهو إذ يمد يده طلبا لمن يمسك بها ليقف، يسحبها سريعا في إباء وكبرياء، وعزة وشموخ، فقد ألف الوقوف منفردا، واحترف التحدي والصمود وحيدا، ومهما خبت شعلته، ومهما تراكمت عليه أكوام الرماد سيظل جمر عزيمته متوهجا.

قفا، فمِـن أدبِ الأطـلال أن تقِـــفا :: أو فاترُكاني مع الأطلالِ.. وانصـرِفا
ولا تخـــافا.. فلا خـوفٌ على رَجُلٍ :: مِن طولِ ما كان يبقى وحدهُ، احْتَرَفا
لي– فاتركاني– هنا ذكرى، تحطّمني :: وتبعثُ الجمــرَ مما قد خبا شغـفا[3]

ويقدم الشاعر مبررات لكل ما يقدمه من تضحيات، رغم ما يعيشه غربة، بوشائج الانتماء التي تربطه بالأرض، فهو أمراسها وصُواها، ودعائمها التي تستعصي على الانجراف مهما عتا الموج واصطخب.

لأننا مِن هنا، قبل الـ (هنا)، فإذنْ :: هنا سنبقى طويلا.. نحفظ الشرفا
ونحن أحجارُ هذا النهـرِ، في ثقةٍ :: والنهـر يدري، ويستثـني إذا جرفا
هذي البلادُ لنا.. لا مــوت يقتلنا :: فيها، ولا فوقـــها نَعْبًا بمن قصفا[4]

ويعود بعد كل ما أعلن من غضب، وبعد كل ما باح به من إحساس بالاغتراف ليفتح قلبه المحب لبني قومه، فهو أكبر من أن يحقد وأن ينتقم وقد جمع كل ما في الطبيعة من عظمة وقوة.

قومي، وإن أغضبوني، بالبســوس فهمْ :: أهلي وقومــي.. على الســـراء والبــؤسِ
أنا البحار.. أنا الصحــراء إن غضبتْ :: أنا غدي القـــادم المولـــود من أمـــسي[5]

---

[1]– م، ن، ص ص 21 22.
[2]– م، ن، ص 25.
[3]– م، ن، ص 51.
[4]– م، ن، ص 56.
[5]– م، ن، ص 74.

وينصب الشاعر نفسه لسانا لقومه وضميرا لأهله، حتى ولو ضيعوه، حتى ولو تخلوا عنه، سيخطو على الدروب الشائكة وحده، يجبر كسره بكسره، يتفجر ينابيع بين صخور الأتراح، ويشرق أقمارا بين ظلمات الليالي.

أقول سأصنعُ من ضيق حالي :: حلــولا.. وضـيقُ الحــزينِ حلــولُ

أقول سأجبرُ كسري بكســري :: يقالُ (انتهى.. لا.. ولنْ.. مستحيلُ)

أقولُ سأنبتُ في حـزن (عكّا) :: ومِنْ (موصــلٍ) أحرقتــهُ الفلـولُ

ومِن (بَردى)، بردى عــربيٌّ :: لهُ نسـبٌ عــربيٌّ أصــيلُ[1]

غير أن الشاعر لا يظل صابرا يفرش للجميع الدروب ورودا، إذ قد لا يجدي ذلك دائما، لذا نراه يشهر سيف النرجسية في وجوه الجميع، غارفا من ينابيع أمير النرجسية أبي الطيب المتنبي.

وعـيبـي بأنــي بلا أيّ عيبِ :: أنا اسمـي (أبو الطيّـب المتنبــي)

أنا الشـاعر النرجسيّ الكبيرُ الـ :: ـذي عاش في الطير مِن دون سربِ

طويلٌ أنا.. جبهتي عشُّ نحـمٍ :: وجبهة خصمــي لأسفل كعبــي[2]

وإن كانت الأبيات تذكرنا ببيت المتنبي.

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم :: ويأبــي الله ما تأتون والكــرم[3]

فإنه يوغل في النرجسية حتى يتجاوز المتنبي ذاته، فإذا هو طائر يرفض أن ينتمي إلى سرب، وإذا هو شامخ الهامة، حتى اتخذ النجم من جبهته عشا، ليظل خصومه أسفل كعبه، والمعنى العام يحيلنا على قول المتنبي، أستاذ النرجسيين ومدرستهم.

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي :: أنا الثريا وذان الشيب والهرم[4]

ولم تكن نرجسية المتنبي إلا رد فعل على ما كان يعاني منه من اغتراب بين قومه.

وعلى الدرب ذاته يصر الشاعر محمد جربوعة على أن يكون المتنبي فيصرخ في وجه الاغتراب.

أنا المتنبّي

أنا حينَ أهجو السياطَ..

فإنّي مع السوط أهجو ظهور العبيدِ

أنا المتنبّي

أنا العاصف القاصف المستبدّ العنيفُ

أنا الجاهليُّ.. وصخرةُ وادي القوافي..

---

[1]- م، ن، ص 103.

[2]- م، ن، ص 105.

[3]- المتنبي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، شرح ناصف اليازجي، مج 2، ص 122.

[4]- م، ن، ص ن.

ونبعُ المصبِّ
أنا المتنبّي
قضاءُ السّما..
ومشيئة ربّي[1]

خاتمة:

ونرسو في الأخير عند جملة من النتائج نجملها فيما يلي:

✓ الاغتراب هو قلق إيجابي يتملك المبدع لإحساسه بعدم الانتماء إلى المحيط المادي والمعنوي، غير أن نتائجه قد تكون سلبية أو إيجابية على المتغرب، وذلك راجع لدرجة الإحساس بهذا الاغتراب، ودرجة وعي المبدع بدوره في هذا المحيط.

✓ ليس الإحساس بالاغتراب وليد عصرنا، ولكنه موغل في القدم، غير أن ما شهدته المدنية البشرية عمقت الإحساس بهذا الشعور.

✓ أدت عوامل كثيرة، تاريخية وسياسية واجتماعية إلى إحساس طائفة كبيرة من المثقفين العرب في العصر الحديث بالاغتراب، وكان للأحداث المتسارعة التي شهدتها المنطقة تأثير كبير في ذلك، منذ الاحتلال الغربي للدول العربية إلى ما سمي بالربيع العربي.

✓ يحس المتلقي لشعر محمد جربوعة بطغيان هذا الإحساس، فهو من الشعراء الكبار الذين لم يحملوا هموم ذواتهم بقدر ما حملوا هموم أمتهم، فكانوا بما امتلكوا من قدرات شعرية كبيرة لسانها وسيفها، وهو بذلك يقف مع الشعراء الكبار في العصر الحديث، من البارودي إلى شوقي إلى السياب وصلاح عبد الصبور إلى مفدي زكرياء ونزار قباني ومحمود درويش.

✓ تتبعت المقالة حضور الإحساس بالاغتراب بدء من العنوان "ظل المطر"، ثم المعجم عبر حقلين دلاليين، ثم عبر التخييل من خلال توليد الصور، وكلها أكدت ذاك الحضور القوي والطافح للاغتراب.

✓ توقفت المقالة عند الحضور البارز للاغتراب من خلال الزمان والمكان والإنسان، وبالتالي فإن الشاعر اختلف عن كثيرين من الشعراء، على الأقل في هذا الديوان، والذين تجلى الاغتراب عندهم سياسيا واجتماعيا وربما حتى فكريا وعقديا.

✓ تتبعت المقالة ما حاول الشاعر أن يتخذه دون جدوى حبال إنقاذ، كالشعر والمرأة والكأس، وهو بالتالي لم ينكفئ على نفسه على غرار كثير من التجارب.

✓ قابلْنا مصطلح الاغتراب بمصطلح الاحتراب، لما تلمسناه من سبل سلكها الشاعر لمواجهة موج الاغتراب، فكان بذلك هادما بانيا في الآن ذاته، وبذات الخطوات تقريبا التي سرنا بها في قراءة الاغتراب قرأنا الاحتراب، وتوقفنا عند المعجم في حقلين دلاليين، ثم عند التخييل من خلال ما استدعاه الشاعر من صور، ثم عند تجليات هذا الاحتراب في ديوان "ظل المطر".

[1]- محمد جربوعة، ظل المطر، ص 116.

المصادر والمراجع

المصادر:

1. محمد جربوعة، ظل المطر، دار المنتهى، الجزائر، 2020.

المراجع:

الكتب المنشورة

2. ابن منظور، لسان العرب، مج 3، ط 3، دار صادر، بيروت، 1994.
3. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ج 2،، ط 2 دار الفكر، لبنان.
4. أبو حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، مصر، 1950.
5. أبونواس، ديوان أبي نواس برواية الصولي، تحقيق بهجت عبد الغفور الحديثي، ط 1، هيأة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الإمارات، 2010.
6. أحمد درويش، في النقد التحليليّ للقصيدة المعاصرة، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1996م.
7. البحتري، ديوان البحتري، تحقيق وشرح وتعليق حسن كامل الصيرفي، مج 1، ط 3، دار المعارف، القاهرة، مصر.
8. بدر شاكر السياب، بدر شاكر السياب، دار العودة، بيروت، لبنان، 2016.
9. الجاحظ، الحيوان، دار أحّاء العلوم، القاهرة، مصر، ط 1955.
10. الشنفرى، ديوان الشنفرى، ط 2، جمع وتحقيق إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1996.
11. عبد اللطيف صديقي، الزمان وأبعاده وبنيته، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1995.
12. عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب، القاهرة، مصر، 2002.
13. عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، مكتبة كِرِّب القاهرة، 1984.
14. المتنبي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، شرح ناصف اليازجي، مج 1، بيروت للطباعة والنشر، 1981.
15. محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998.
16. محمود درابسة، مفاهيم في الشعرية، ط 1، دار جرير، الأردن، 2010.
17. المقنع الكندي، شعر المقنع الكندي، جمع وتحقيق ودراسة أحمد سامي منصور، الكويت: حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 32 (الرسالة 341)، 2011 م.
18. مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004
19. نبيل راغب، موسوعة الفكر، دار غريب، القاهرة، مصر، 2002.
20. المواقع الإلكترونية

المواقع الإلكترونية

1. نزهة صادق، مختصر فلسفة الوجود عند مارتن هيدجر، موقع أزاميل، https://azamil.com/?p=30973 نشر بتاريخ 03-11-2020، اطلعت عليه بتاريخ 09-01- 2021.